

1640 - وما زال بخيب محفوظ يعلمنا؟؟ (8)

المدينة الفاضلة والطوفان وتجارة بيع الأحلام

وجدت صعوبة شديدة اليوم في كتابة هذه الكلمة، هذه الصعوبة لم تفارقني أبدا منذ قررت ألا أحبس رأبي ما دامت هناك مساحة تقبله، كنت دائما أعتقد أن مثل ذلك (حبس الرأي) هو بمثابة كتم الشهادة، أو خيانة أمانة ما حملني إياه مرضاي (وخبرتي) أنقله لعامة الناس، ومع ذلك رحلت أراجع نفسي هذه الأيام: ماذا يفيد ما أكتب وسط كل هذه الامواج من الكلمات والآراء، زيدا أو غير ذلك.

تتجسد لي هذه الصعوبة أكثر فأكثر حين أقرأ الصحف العشرة التي تصلني كل صباح، بعد أن قررت أن تكون هي المصدر الأساسي لمتابعة الجارى، والاطلاع على الآراء السائرة هذه الأيام، ودون داع لتأكيد موقفي الاضطرارى للتقاؤل حتى أبرر استمرارى في الحياة، أقر وأعترف أنني أصاب بغم ثقيل بعد أن أفرغ من تقليب هذه الصحف جميعا، أترجح بين رشوة العواطف، ودغدغة العامة، وصرخات الثأر، وتشويه القضاء، والتركيز على حسابات الماضى، وتجاهل المسؤولية، مع عدد نادر من الرؤى الموضوعية والاقتراحات القابلة للدراسة والتنفيذ، كدت اليوم بالذات أن أقرر أن أعطى لنفسي إجازة حتى يتم اختيار الرئيس، وتعيين وزارة مستقرة، وصياغة الدستور، ثم أنتظر ستة أشهر إلى سنة لأرى ماذا جرى في مصر، ولمصر بعد كل هذا من تحسين الاقتصاد، واستقلال الإدارة، وتطوير التعليم بعيدا عن تدخل الصحف ودموع الأمهات، ومراكز الدروس الخصوصية، أنتظر حتى أرى انتظام المرور، وتشغيل الأموال الخاصة والعامة في الإنتاج، والاستعداد لحرب إسرائيل وما تمثله على كل المستويات، فإذا مرت هذه الأجازة بخير، وكانت نتيجة كل ذلك إيجابية بالمقاييس الموضوعية والتاريخية، وليس بعدد الأصوات سواء في البرلمان وعلى صفحات الفيس بوك فربما أرجع إلى قلمي أصلحه وأشكره أن تركني في إجازتي وغالبا لن أجد ما أكتبه ف "كله تمام".

قدرت - في خيالي - أنه مادام كل ذلك قد تم في اتجاه ما يسمح لي أن أسميها ثورة حقيقية تستأهل حمد الله على ما أجراه من نعمة على يد هذا الشعب بدءا بفورة شبابه،

كنت دائما أعتقد
أن حبس الرأي هو
بمثابة كتم
الشهادة، أو خيانة
أمانة ما حملك إياه
مرضاك (وخبرتك)
أنقله لعامة الناس

وأعزف الناس
ماهية ما وطنك من
مرضاك ونفسك
وقراءاتك عن فطوة
الله التكم فطر الناس
عليها

فلا بد أن أكون راضيا، وسيصبح على أن أركز في عملي العلمي، العملي، نقدا، وإضافة، ما أمكن ذلك، وهو ما أحاوله طول الوقت فيما أسميته "تقد النص البشري"، أتعرف من خلاله، وأعرّف الناس ماهية ما وصلني من مرضى ونفسى وقراءاتي عن فطرة الله التي فطر الناس عليها. أما إذا كان الحال بعد هذه الأجازة الطويلة، هو نفس الحال الجارى حالا، كما تشير الإشارات التي وصلتني بعد هذه الثلاثة عشر شهرا، فسوف أجد نفسى في نفس مأزق صعوبة هذه اللحظة ، بل أكثر كثيرا غالبا.

حين كنت أمر بمثل هذه المقاومة، كنت أستشير شيخى محفوظ وكأنى أخذ منه الإذن أن أتوقف، وكان يهنئني نهرا واضحا بطريقته الوالدية الدمة القوية معا، ولم يكن يبدى أسباب اعتراضه لكنه كان واضحا تماما في كل مرة، أنه "لا للتوقف"، يعنى "لا للتوقف"، أعرف أنه لو كان معى الآن لتكرر نهري ورفضه، لكن عندك، فيها هو معى الآن وقبل الآن وبعد الآن، فما رأيك يا عمنا؟

ناولنى شيخى فقرتين من أصداء السيرة ، ومعهما ما كتبتُ عنهما نقدا خجلت، وواصت التعلم منه معكم كما يلى :

أولا: الفقرة (155) "الطوفان" (من الأصداء 1992 ؟؟)

قال الشيخ عبد ربه التائه

سيجيء الطوفان غدا أو بعد غد، سيكتسح النساء والفاستين، ولن تبقى إلا قلة من الأكفاء. تنشأ مدينة جديدة تتبعث من أحضانها حياة جديدة، ليت العمر يمتد بك يا عبد ربه لتعيش ولو يوما واحدا فى المدينة الآتية.

النقد الباكر (أصداء الأصداء: 1996)

حلم المدنية الفاضلة بعد الطوفان تكرر فى الأساطير، والأديان، ولم يضيف الشيخ عبد ربه هنا جديدا يستحق. فلماذا كتب محفوظ هذه الفقرة البديهية؟ ولماذا جمع النساء مع الفاستين والعاجزين؟ وهل استدرج حتى جعل النساء رمزا للفساد والعجز كما ذهب بعض أقوال الأديان والأساطير؟

ثم كيف نقبل أن يكون الشيخ عبد ربه بكل هذا التكامل الذى زعمناه، وهو يصلح الموت ويحاوره بشجاعة وطيبة فائقين، هذا الشيخ الذى رأيناه ومثله الأعلى أن يتزوج فى عامه المائة، وهو يعبد الحياة، ويساعد الآخرين، ويرفض النكوص الفج، ثم فجأة نراه مثل واحد منا ينتظر الطوفان، ويحلم بالمدينة الفاضلة، قد نفهم كيف أن حلم إغراق الفاستين بالطوفان هو حلم مشروع، وخاصة حين يستحيل مقاومتهم أو إصلاحهم، فلماذا يكتسح الطوفان العاجزين ، ناهيك عن النساء كما ذكرنا؟

سيجيء الطوفان
غدا أو بعد غد،
سيكتسح النساء
والفاستين، ولن
تبقى إلا قلة من
الأكفاء. تنشأ
مدينة جديدة
تبعث من أحضانها
حياة جديدة، ليت
العمر الآتية يمتد
بك يا عبد ربه
لتعيش ولو يوما
واحدا فى المدينة

قد نفهم كيف أن
حلم إغراق
الفاستين بالطوفان
هو حلم مشروع،
وخاصة حين يستحيل
مقاومتهم أو إصلاحهم،
فلماذا يكتسح
الطوفان العاجزين ،
ناهيك عن النساء
كما ذكرنا؟

وأخيراً: كيف تحلم يا شيخ عبد ربه بالمدينة الفاضلة، وهي في الأغلب كما تعلم، مسخ ذو بعد واحد، وأنت الذى رأيناك تحتوى زخم الأضداد كلها، أم أن ذلك كله يعلن احتمال أنك أنهكت فتمنيت يوماً واحداً (لا أكثر) بعيداً عن زخم الحياة الرائعة التي تمثلها (لى على الأقل)، يوماً واحداً، وتعود لمدينتنا الحقيقية التي لا شك أنها أروع من كل المدن الفاضلة عبر التاريخ، أروع بما علمتاً وتعلمنا؟

التحديث (يناير 2012)

وصلنى التحذير الآن من الطوفان الذى يكتسح أمامه كل ما يصادفه إلا من قفز على سطح السفينة، فتلفت لأتبين أية سفينة تلك التى يمكن أن يقفز إليها المثاليون والأطفال الحالمون بالمدينة الفاضلة، فانتبهت إلى أن الفقرة التى سبق أن اعترضت على أنها تدعو للمدينة الفاضلة، ربما هى فى حقيقتها تحذر من الحلم بالمدينة الفاضلة على حساب الواقع، كما رجحت أن محفوظ إنما ينبهنا إلى ضرورة الوعى بالتاريخ، وبثمن إعادة تأسيس الدولة بعد الطوفان، وإلى مسئولية تشكيل الحضارة القادمة، أنتبهت إلى ذلك وأنا أنظر فى الورقة الثانية التى ناولنى إياها وإذا بها الفقرة التالية رقم 156، بعنوان "التجارة"، وهى تبدو مكتملة لسابقتها، فهى تحذر من الانسياق وراء من "يتاجرون بالأحلام"، إذن: ثم احتمال أن قرصنة خدعوا الناس، وأن تجارتهم ليست سوى الأحلام الزائفة.

الفقرة (156) "التجارة" (من الأصداء 1992؟؟)

قال الشيخ عبد ربه التائه

حذار.. فإننى لم أجد تجارة هى أربح من بيع الأحلام.

النقد الباكر (أصداء الأصداء: 1996)

يحذرننا الشيخ عبد ربه من تجارة الأحلام، ولا يحذرننا من الأحلام نفسها، وشتان بين من يعايش الحلم واقعا رائعا لأنه يكتمل به، ومن يقف من الحلم موقف التأويل الرمزي أوالدهشة المعقنة أو الفرجة وكأنه منفصل عنه. إن من يتاجر بالأحلام لا يحلم، ولا يعايش حلمه، بل ولا يفصره أو يؤوله، بل ربما هو لا يحلم أصلا ويكتفى بأن يصنع للناس أحلاما زائفة على قدر مقاسات جوعهم واحتياجهم، أحلام بالعدل المطلق، وبالمدينة الفاضلة، وبالطوفان (جاءك كلامى يا عمى الشيخ؟) ثم يبيعهما لهم بعد أن يرفع علامة أنها "حلم" "صنع حسب طلب الزبون.

ولا أكرر هنا بعض شواهد إثبات جدوى هذا التحذير، من أول حلم أفلاطون عن الفيلسوف الحاكم، أو الفيلسوف الملك، الذى يحاول أن يضع أفكاره موضع التنفيذ الفورى، حتى نهاية أروع وأطول حلم عرفته البشرية الذى انتهى للأسف بانتهيار الاتحاد السوفيتي.

وصلنى التحذير الآن من الطوفان الذى يكتسح أمامه كل ما يصادفه إلا من قفز على سطح السفينة، فتلفت لأتبين أية سفينة تلك التى يمكن أن يقفز إليها المثاليون والأطفال الحالمون بالمدينة الفاضلة

رجحت أن محفوظ إنما ينبهنا إلى ضرورة الوعى بالتاريخ، وبثمن إعادة تأسيس الدولة بعد الطوفان، وإلى مسئولية تشكيل الحضارة القادمة

قال الشيخ عبد ربه التائه حذار.. فإننى لم أجد تجارة هى أربح من بيع الأحلام

التحديث (يناير 2012)

...رأينا الآن بعد ثلاثة عشر شهرا كيف أن التمدادى فى هذا الهدير الشوارعى، تحت عنوان تحقيق كل أهداف الثورة بالجملة، هو أقرب إلى ما تمثله تجارة الأحلام هذه منه إلى السعى الجاد للإسهام فى تحقيق كرامة البشر، ليس بأن يعيشوا فى مدينة فاضلة هى حق لهم كحلم بقطة له عمر افتراضى محدود، لكنه إن تمادى وتكرر وتدفق بلا حساب انقلب فيه هدير أصوات الناس وشغب دورانهم حول أنفسهم إلى موجات الطوفان التى سوف تكتسح الجميع ، حتى تلوح سفينة تدعى الإنقاذ من البنك الدولى أو المستعمر الجديد دون أن نعرف هويتهم، ثم نتبين أن قادة السفينة ليسوا إلا قراصنة، يلتقطون من نجي من الطوفان يبعون له أحلاما جديدة.

هذا هو ما نبهنا إلى الحذر منه عم عبد ربه التائه (الذى هو نجيب محفوظ كما اعترف لى أكثر من مرة) أنها أرباح تجارة على حساب أى أبله لا يرى أصالة ما يشتري، ولا ينتبه إلى عمره الافتراضى، فيعود كل الريح إلى القرصان الشاطر، وليس إلى العبيد الذين لن يبقى لهم إلا أن ينزلوا إلى قاعها، ويمسكون المجاديف ويتحملون ضرب السياط للوصول إلى ميناء التجارة التالى، وهكذا!!!.

للتسجيل فى وحدة الدراسة و البحث فى الإنسان و التطور

أرسال طلب الك بريد الشبكة

arabpsynet@gmail.com

مصحوبا بالسيرة العلمية من خلال النموذج التالى

<http://www.arabpsynet.com/cv/cv.htm>

كامل نشرات " الإنسان و التطور " (اليومية) على الوبج

<http://www.rakhawy.org>

www.arabpsynet.com/Rakhawy/IndexRakAr.htm

إن من يتاجر بالأحلام لا يحلم، ولا يحايش حلمه، بل ولا يفسره أو يؤوله، بل ربما هو لا يحلم أصلا ويكتفك بأن يصنع للناس أحلاما زائفة على قدر مقاسات جوعهم واحتياجهم أحلام بالعدل المطلق، وبالمدنية الفاضلة، وبالطوفان ثم يبيعها لهم بعد أن يرفع علامة أنها "حلم" "صنع حسب طلب الزبون

التمادى فى هذا الهدير الشوارعى، تحت عنوان تحقيق كل أهداف الثورة بالجملة، هو أقرب إلى ما تمثله تجارة الأحلام هذه منه إلى السعى الجاد للإسهام فى تحقيق كرامة البشر